مفهوم الإصلاح وقضاياه

الأستاذ حسين زروق

نشر في كتاب

إشكالية التنمية ووسائل النهوض.. رؤية في الإصلاح

نخبة من الكتاب والباحثين

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

إشراف مركز البحوث والدراسات سابقا

(إدارة البحوث والدراسات حاليا)

الطبعة الأولى

رجب 1429هـ - تموز (يوليو) 2008م

أعيد نشره إلكترونيا في رمضان 1439هـ/ 2018م

مفهوم الإصلاح وقضاياه

الأستاذ الحسين زَرُّوق (*)

العمل الجماعي هو الآلية التي تمكننا من إنجاز أكبر قدر من الأعمال بأقل جهد ممكن، فإذا ما صار العمل الجماعي ينجز ما يمكن أن ينجزه فرد واحد، فتلك علامة شيخوخة ذلك العمل الجماعي وانتقاله من الإيجابية إلى السلبية، ومن الإنتاج إلى الاستهلاك بما في ذلك استهلاك طاقات أعضائه وإحراقها دون وجه حق.

توطئة:

يندهش المرء عندما يقف على قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ (الأنبياء:105) وهو يرى واقع أمته المزري: أزيد من مليار نسمة يعيشون أسوأ حالات عدم الاستقرار في العالم بسبب الصراعات والحروب، والفقر والتخلف، والجهل والأمية...، وفي الوقت نفسه يرى صالحين بين الناس، ولكنه اندهاش سرعان ما تخف حدته عندما يقرأ تحذيراً نبوياً ورد في صيغة إخبار، فعن زينب بنت جحش، رضي الله عنها، أنها سألت رسول الله ﷺ فقالت:«يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[1]. فلا وزن لهؤلاء الصالحين أمام عملية تكاثر الخبث.

ويطمئن القلب إلى أن حالنا بين أمرين:

إما سببه غياب الصالحين ومن ثم فنحن لسنا ورثة للأرض ولا ينطبق علينا شرط

(*) باحث أكاديمي.. (المغرب).

(1) أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، 2/880، حديث رقم 3598، تحقيق صدقي جميل العطار، ط1 (بيروت: دار الفكر، 1421هـ/2000م).

وراثتها؛ لأن الله عز وجل كتب أن الصالحين هم الذين يرثون، وإما أن سببه أن الصالحين موجودون ولكنهم غير فاعلين.

والقطع بأحد السببين من الشطط، فلا يخلو الزمان من صلاح ومن صالحين فاعلين، فأين يكمن سبب عدم الوراثة؟ لماذا لم نستلم زمام القيادة؟ ولماذا تعطل دورنا الحضاري في إخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، وفي الشهادة بحق على الناس؟

تلك أسئلة وغيرها كثير، نحسب أن من شأن تأمل ما ورد بخصوص الصلاح والإصلاح في القرآن الكريم والسنة النبوية أن يقدم لنا إجابات شافية عنها.

أولاً: مفهوم الصلاح والإصلاح:

أصل الإصلاح صَلُح، وهو «أصل واحد يدل على خلاف الفساد. يقال: صلُح الشيء يصلح صلاحاً. ويقال صَلَح بفتح اللام»[(1)]، ومما له علاقة بذلك: «أصلح الشيء بعد فساده: أقامه. وأصلح الدابة: أحسن إليها فَصَلَحت... »[(2)]، و«الصلح: السِّلم»[(3)].

وقال الراغب:«الصلاح ضد الفساد، وهما مختصان في أكثر الاستعمال بالأفعال، وقوبل في القرآن تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة:102)، ﴿وَلَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ بَعۡدَ إِصۡلَٰحِهَا﴾ (الأعراف:56)...، وإصلاح الله تعالى الإنسانَ يكون تارة بخلقه إياه صالحاً، وتارة بإزالة ما فيه من فساد بعد وجوده، وتارة يكون بالحكم له بالصلاح»[(4)].

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، مادة«صلح»، تحقيق عبد السلام هارون (بيروت: دار الفكر، دون رقم الطبعة أو تاريخ الطبع) 303/3.

(2) ابن منظور، لسان العرب، مادة«صلح»، ط3 (بيروت: دار صادر، 1414هـ/1994م) 517/2.

(3) المرجع السابق.

(4) الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، مادة«صلح»، تحقيق صفوان عدنان داوودي، ط3 (دمشق: دار القلم، 1423هـ-2002م) ص490.

يفيد التتبع السابق للمادة لغةً أموراً:

– الإصلاح ضد الفساد، والوقوف على حقيقة الأول يتطلب – مما يتطلبه – الوقوف على حقيقة الثاني.

– الإصلاح عمل حسن، والإفساد عمل سيء؛ لأن الإصلاح في القرآن الكريم ورد في سياق مخالف للعمل السيء كما رأينا في آية سابقة، مما يعني أن الإصلاح إحسان والإفساد إساءة.

– للإصلاح مجالات منها ما يتعلق بالذات، ومنها ما يتعلق بالعلاقات، ثم منها ما يتعلق بالأعمال والسلوكات.

– يرتبط بالإصلاح إشاعة السلام بين الناس باعتباره صلحاً بينهم، فشيوعه من مقتضيات الإصلاح، وغيابه دليل على انتشار الفساد.

وعموماً، فمدار الصلاح والإصلاح على علاقة مع الله، والنفس، والإنسان(1)، وعلى محاور كبرى هي: الاستقامة، والإحسان، والمسالمة، والإقامة، والجواز، والصحة(2).

والصلاح وفق تلك العلاقات والمحاور كما صاغه باحث هو: «**استقامة الحال واعتدالها، وجريان الأفعال على إصابة الحق والصواب، على ما يدعو إليه الشرع والعقل بما يحقق المسالمة والوئام**»(3).

ومدار مفهوم الصلاح، وفق ما سبق، على أمر الاستقامة: استقامة المنهج، واستقامة السلوك، واستقامة العلاقات، وضابط تلك الاستقامة المرجعية الإسلامية.

وبناءً على ذلك، فالإصلاح ليس سوى ممارسة للصلاح، أي استقامة يمتد أثرها

(1) عبد الواحد الحسيني، مفهوم الصلاح والإصلاح في القرآن والحديث، أطروحة دكتوراه في الدراسات الإسلامية، نوقشت بجامعة محمد بن عبد الله، كلية آداب، ظهر المهراز بفاس، خلال الموسم الجامعي (1423-1424هـ/2003-2004م) ص 57.

(2) المرجع السابق، ص 58-71.

(3) المرجع السابق، ص 71.

إلى (الغير)، ويدفع هذا (الغير) إلى الاستقامة بدوره، فتستقيم الأحوال من حصيلة الاستقامات، ويقتضي ذلك من ضمن ما يقتضيه أن يكون الصلاح فاعلاً، وهذا محور العنصر الموالي.

ثانياً: من الصلاح إلى الإصلاح:

أ- الصلاح والصالحون:

رأينا سابقاً أن الصلاح ضد الفساد، ونضيف هنا أن الفساد، كما قال الراغب الأصفهاني: «خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً،... ويستعمل ذلك في النفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة»[1]، فالصلاح بذلك اعتدال واستقامة، والصالح شخص معتدل مستقيم، وما من شك في أن الاعتدال والاستقامة مما يمكن أن يُختَلف في تحديدهما اختلافاً كبيراً، والسؤال هو: ما معيار الاعتدال والاستقامة؟ وبصيغة أخرى متى يكون المرء صالحاً؟

ورد الحديث في القرآن الكريم عن الصلاح مرتين هما معاً بصيغة الفعل الماضي، وبالعبارة نفسها: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ﴾ (الرعد:23؛ غافر:8)، ومرة من تينك المرتين يرد في سياق الحديث عن أولي الألباب، ويشركهم في المصير نفسه: ﴿... إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾ ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴾ (الرعد:19-23)، ومشاركتهم لهم في الأجر تفيد أنهم مثلهم، وذلك بجامع العطف الدال على مشاركة المعطوف للمعطوف عليه في الحكم، يعني ذلك أن

(1) مفردات ألفاظ القرآن، مادة «فسد»، ص636.

من سيماء الصلاح: **الوفاء بالعهد والميثاق، ووصل ما أمر الله به أن يوصل، وخشية الله**...مما تضمنته الآيات السالفة الذكر.

والقرآن الكريم يصف الصالحين وصفاً لا يبقي مجالاً لشك في هويتهم وطبيعتهم، فقد قال تعالى: ﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ (١١٣) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ (آل عمران:113-114)، لقد استحقوا أن يكونوا من الصالحين؛ لأنهم جمعوا عناصر وصفات هي:

- أمة؛ قائمة؛ تلاوة آيات الله؛ السجود لله؛ الإيمان بالله واليوم الآخر؛ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ المسارعة في الخيرات.

فالصلاح وحدة تتجه نحو الله تعالى، تقوم على ثلاثة أسس: أساس **عقدي** (الإيمان...)، و**تعبدي** (السجود...)، و**دعوي** (الأمر بالمعروف...)، مع أخذ **زمام المبادرة** (المسارعة).

وفي نص آخر يقول تعالى: ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ اللَّهُ ﴾ (النساء:34)، فهن صالحات ومن صلاحهن **قنوتهن وحفظهن للغيب**، والقنوت كما قال الراغب: «لزوم الطاعة مع الخضوع»[1].

وتلك العناصر السالفة الذكر هي نفسها التي جمعها كل من وصف بالصلاح في القرآن الكريم وفي مقدمتهم الأنبياء والرسل ومنهم زكريا ويحيى وإلياس (الأنعام:85)، وعيسى (آل عمران:46)، ونوح ولوط (التحريم:10)...، والسمة البارزة الجامعة

(1) مفردات ألفاظ القرآن، ص:684، مادة«قنت».

للصالحين أنهم عباد الله، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:105).

والصالحون وفق ما يقدمه حديث نبوي قوم صلحت قلوبهم فصلحت سائر جوارحهم، فقد روى البخاري عن النعمان بن بشير، ﷺ، أنه قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ. أَلا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى، أَلا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ. أَلا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[1]، ويدل ذلك على أن القلب مركز الصلاح، وعنه يصدر، وأن من صلاحه تمييزه بين الحلال والحرام والمشبهات، وتمسكه بالأول وتجنبه للآخرين.

ولا يكون القلب صالحاً مميزاً بين الحلال والحرام إلا إذا كان قلباً مؤمناً، أي تحقق فيه شرط العبودية الحقة لله تعالى، فإذا ما تحقق فيه ذلك كان مركز القيادة والتوجيه والتحكم داخل الجسم، لذلك نصح ﷺ وابصة، ﷺ، أن يستفتي قلبه، فعن « وَابِصَةَ بْنِ مَعْبَدٍ قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ لا أَدَعَ شَيْئًا مِنَ الْبِرِّ وَالإِثْمِ إِلا سَأَلْتُهُ عَنْهُ، وَإِذَا عِنْدَهُ جَمْعٌ، فَذَهَبْتُ أَتَخَطَّى النَّاسَ فَقَالُوا: إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. إِلَيْكَ يَا وَابِصَةُ. فَقُلْتُ: أَنَا وَابِصَةُ، دَعُونِي أَدْنُو مِنْهُ، فَإِنَّهُ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ أَنْ أَدْنُوَ مِنْهُ. فَقَالَ لِي: **ادْنُ يَا وَابِصَةُ، ادْنُ يَا وَابِصَةُ**، فَدَنَوْتُ مِنْهُ حَتَّى مَسَّتْ رُكْبَتِي رُكْبَتَهُ، فَقَالَ: **يَا وَابِصَةُ أُخْبِرُكَ مَا جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنْهُ أَوْ تَسْأَلُنِي؟** فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَخْبِرْنِي. قَالَ: **جِئْتَ تَسْأَلُنِي عَنِ الْبِرِّ وَالإِثْمِ**، قُلْتُ: نَعَمْ،

(1) صحيح البخاري، كتاب البيوع، باب الحلال بين والحرام بين...، 2/486-487، حديث رقم 2051.

فَجَمَعَ أَصَابِعَهُ الثَّلاثَ فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهَا فِي صَدْرِي وَيَقُولُ: **يَا وَابِصَةُ اسْتَفْتِ نَفْسَكَ، الْبِرُّ مَا اطْمَأَنَّ إِلَيْهِ الْقَلْبُ وَاطْمَأَنَّتْ إِلَيْهِ النَّفْسُ، وَالإِثْمُ مَا حَاكَ فِي الْقَلْبِ وَتَرَدَّدَ فِي الصَّدْرِ وَإِنْ أَفْتَاكَ النَّاسُ** -قَالَ سُفْيَانُ- **وَأَفْتَوْكَ**»[1]، قال ابن رجب الحنبلي: «وهذا يدل على أن الله فطر عباده على معرفة الحق والسكون إليه وقبوله، وركز في الطباع محبة ذلك والنفور ضده»[2]، ولا يطمئن القلب وتحصل له المعرفة والسكينة إلى الحق إلا بعد أن يمتلئ بالإيمان.

وقد تَعْرِض لهذا القلب عوارض تصرفه عن الصلاح لذلك كانت الحاجة ماسة إلى حمايته بالذكر مما يجعله دائم الصلة بالله، مستمر المراقبة والخشية له، طالباً القرب باستمرار منه، مستمداً العون منه، وكيف لا يكون كذلك والقلب لا يطمئن إلا به: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ (الرعد:28)، هذا والاستمداد من الله تعالى للصلاح ديدن الأنبياء[3]. وما سبق يفيد أن الصلاح استقامة على الطاعة واعتدال فيها، والصالح من استقام واعتدل فلم ينحرف، وقد تشبع قلبه بالإيمان ففاض على الجوارح، وطلب الحلال وتجنب المحرمات والشبهات.

ب- الإصلاح والمصلحون:

(1) المسند، أحمد بن محمد بن حنبل، بإسناد صحيح، 14/32-33، حديث رقم 17924، وفي رواية أخرى عنده بإسناد حسن، حديث رقم 17929«استفت قلبك»، شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر وحمزة أحمد الزين، ط1 (القاهرة: دار الحديث، 1416هـ/1995م).

(2) ابن رجب الحنبلي، ن. جامع العلوم والحكم (بيروت: دار الفكر، 1412هـ/1992م) ص 252.

(3) كسيدنا يوسف في سورة يوسف، الآية 101 وسيدنا إبراهيم في سورة الشعراء، الآية 83، وسيدنا سليمان في سورة النمل، الآية 19.

ليس الإصلاح سوى ممارسة للصلاح، وتحويل له إلى قوة فاعلة في الحياة الخاصة والعامة، ومن ثم فالإصلاح جزء من الصلاح باعتباره استقامة على الطاعة، ولأنه كذلك فإنه لا ينفك عنه ولا ينبغي له، وتلك العلاقة نبينها كما يلي:

1- القلب مركز الصلاح، كما رأينا، وعنه تستمد الجوارح صلاحها، وليس عمل الجوارح سوى ترجمة لذلك الصلاح إلى أقوال وأفعال، فعملها ممارسة للصلاح وتحريك وتفعيل له، وقد صاغ الحسن البصري، رحمه الله، تلك العلاقة بين القلب والجوارح، بين ما يعتقده الإنسان وما يمارسه صياغة لطيفة فقال، فيما رواه ابن أبي شيبة: «حدثنا جعفر بن سليمان قال: حدثنا زكريا قال: سمعت الحسن يقول: إن الإيمان ليس بالتحلي ولا بالتمني، إنما الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل»(1)، وتصديق العمل ليس سوى ممارسة لما يعتقده القلب ويؤمن به، وعلى قدر صلاح المركز يكون صلاح الفروع، مما يعني أن الإصلاح أو ممارسة الصلاح صورة لما في القلب من صلاح.

2- تحويل الصلاح إلى ممارسة مسألة حيوية مفيدة للصالح نفسه، وذلك من جهة أن انتشار الفساد يدفع الصالح - إذا لم ينخرط في حركة معاكسة - نحو التطبيع معه، باعتبار ذلك مقدمة لتحويله هو أيضاً تدريجياً نحو الفساد، ومن تلبيس إبليس على الصالح جعله يكتفي بصلاح نفسه لإبطال مفعول صلاحه بين الناس وتحجيمه استعداداً لجولة قادمة يكون الهدف فيها صلاح الصالح نفسه، وذلك سر ثاو في حديث مراتب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر(2) - وعلاقتها بالإصلاح لا تخفى - وأن أقل ما يعذر به المرء - وبتعبير النبي ﷺ «**أَضْعَفُ الإِيمَانِ**» - أن ينكر بالقلب،

---

(1) أبو بكر محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، 163/6، أثر رقم 30351، تقديم وضبط كمال يوسف الحوت، ط1 (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1409هـ/1989م) .

(2) عن أبي سعيد الخدري، رضي الله عنه، قال:«سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: **مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ وَذَلِكَ أَضْعَفُ الإِيمَانِ**»، صحيح مسلم بشرح الإمام النووي، كتاب الإيمان، باب بيان كون النهي عن المنكر من الإيمان، وأن الإيمان يزيد وينقص، وأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبان، حديث رقم 49، ضبط وتوثيق صدقي جميل العطار (بيروت: دار الفكر، 1415هـ/1995م).

إلا يفعل تبدأ الخطوة الأولى نحو الانحدار، وطبعاً تلك الخطوة هي خطوة الموافقة على وجود الفساد وقبوله، وتليها خطوات أخرى منها المشاركة فيه، ومنها الدفاع عن حقه في الوجود، ورأس سنامها الاستعداد للموت في سبيله.

3- تفيد الدراسة الإحصائية لمادة «صلح» في القرآن الكريم[1] أن مادة الصلاح لا تزيد عن 70 مرة، بينما تصل مادة الإصلاح إلى 101، مما يعني كمياً أن الصلاح ينبغي أن يتحول إلى ممارسة، وهذا ما يؤكده الإحصاء من زاوية أخرى، فقد **ارتبط العمل الصالح سياقياً بالإيمان** في القرآن الكريم على مستوى اللفظ المدروس وحده 61 مرة، ورد فيها كلها مفعولاً به لفعل العمل، وجُل هذا الارتباط ورد بصيغة «آمنوا وعملوا الصالحات»[2]، وذلك دال على أنه لا يمكن الفصل بين الإيمان والعمل الصالح، وأن الإيمان باعتباره اعتقاداً يحتاج إلى عمل ليعلن عن نفسه، ومن ثم كان العمل الصالح صورة له ولحجمه، وكلما ارتفعت درجة الإيمان ارتفعت معها درجة الصلاح وممارسته، أي درجة الإصلاح. والإصلاح وفق ذلك تحريك للإيمان على أرض الواقع وتفعيل له في الحياة.

4- الرغبة في الإصلاح من الصلاح، ذلك أنه كلما كان إيقاع الصلاح عالياً اقتضت مسايرة الإصلاح له، أي أن الصلاح يفيض نتيجة امتلاء القلب به على سائر الجوارح، فيصير الصلاح سمة الفعل أيضاً بعد أن كان حبيس القلب والاقتناع، وعندما يفيض يتحول إلى طاقة نورانية فعالة تستمد فعاليتها من قوة الدفع الذاتي،

---

(1) ترد مادة «صلح» كلها في القرآن الكريم 171 مرة دون احتساب اسم سيدنا صالح عليه السلام الوارد 9 مرات. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، مادة«صلح»، ط4 (بيروت: دار الفكر، 1418هـ-1997م) ص520-523.

(2) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، مادة «صلح» ص522-523.

التي يولدها القلب باعتباره مركز توليد الطاقة الإصلاحية، ولشدة فعالية هذا المركز فإنه يرفض أن تكون في الكون طاقات مهدرة ونفوس ضالة؛ لأنه إنما يشتغل بمادة أولية اسمها المحبة لله، والغيرة على محارم الله، والرغبة في إشاعة تلك المحبة وتلك الطاقة؛ لأن تلك الإشاعة ليست سوى جزء من الاستجابة لضغط المادة الخام، التي منها يستمد القلب طاقته وعليها يشتغل لإنشاء قوة الدفع الذاتي، التي تمنح الجوارح قدرة على ممارسة الصلاح ولو في الوسط الفاسد، وإذا كان الإيمان هو مصدر تلك الطاقة الدافعة والمحركة فإن القلب لا يملك إلا أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه؛ لأن ذلك من مقتضيات الإيمان كما في الحديث النبوي، فعن أنس ﷺ « عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**»(1)، والحب عاطفة قلبية، لذلك قال الرسول ﷺ حتى يحب له وليس فقط حتى يحبه، والفرق بيّنٌ بين أن نحب شخصاً وأن نحب له؛ لأن حبه قد ينحصر في القلب ولا يتحول إلى فعل، بينما أن نحب له يعني أننا نحول ذلك الحب إلى ممارسة، وليس ذلك كله سوى ممارسة للصلاح وتفعيل له. وعندما نمارس المحبة نحس بأننا نمتلك طاقة إضافية غير الطاقة التي دفعتنا إلى الفعل فنكون قد جمعنا بين طاقتين: داخلية سميناها آنفاً: «**قوة الدفع الذاتي**»، وخارجية تشكل قوة داعمة وموازية، وهذه الطاقة هي نفسها ناتجة عن المحبة، وقد عبر عنها الرسول ﷺ بـ«**حلاوة الإيمان**» في قوله:« **ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(2)، وهذه الحلاوة التي يكتسبها الإنسان الممارِسُ الصالحُ المشيعُ للمحبة هي التي تدفعه إلى مزيد من

(1) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، 23/1، حديث رقم 13.
(2) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، 24/1، حديث رقم 16.

الصمود في طريق الصلاح طلباً لمزيد من الحلاوة، والفرق شاسع بين من ذاق ومن سمع، فضلاً عمن لم يعرف أن لذلك حلاوة أصلاً.

5- وممارسة الصلاح ليست خياراً؛ بل ضرورة شرعية وعقلية، **أما كون ذلك ضرورة شرعية فلوفرة النصوص الداعية إلى الإصلاح، باللفظ كما في قوله تعالى موجهاً الخطاب إلى الرسل ليكون امتثال غيرهم من باب أولى:** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ (المؤمنون:51)، **وبالمعنى كما في قوله تعالى:** ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:104)، والدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر... ليست سوى واجهات لممارسة الصلاح ومحبة الخير (للغير) كما رأينا من قبل. ويكفي من الضرورة الشرعية أن يكون الإصلاح أحد أربعة عناصر لتجارة رابحة مع الله تعالى، ومن يتاجر مع الله رابح لا محالة، وغياب ذلك العنصر من سمات الخسران، لنتأمل ذلك في سورة العصر: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ (العصر:1-3).

وأما كونها ضرورة عقلية فلأن الصالح في حاجة إلى حماية صلاحه، ولا يمكن له ذلك إلا إذا اتسعت دائرة الصلاح، وهذه لا تكون إلا بالإصلاح، فوجب أن يعمل على توسيع الدائرة بممارسة الصلاح، فإن هو لم يفعل جنى على صلاحه بأن ينتهي في أحسن الأحوال إلى تقبل وجود الفساد، وهذا دال على نقصان في درجة صلاحه، وإن هو بذل جهده ولم يوفق كان أولى له أن يضرب في الأرض باحثاً عن الصالحين أو على الأقل باحثاً عمن يقبلون صلاحه، ولنا في ذلك دليلان:

أولهما قصة الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً، فعن أبي سعيد الخدري،

ﷺ « عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **كَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ قَتَلَ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِنْسَانًا، ثُمَّ خَرَجَ يَسْأَلُ، فَأَتَى رَاهِبًا فَسَأَلَهُ، فَقَالَ لَهُ: هَلْ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: لا، فَقَتَلَهُ، فَجَعَلَ يَسْأَلُ، فَقَالَ: لَهُ رَجُلٌ ائْتِ قَرْيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَأَدْرَكَهُ الْمَوْتُ فَنَاءَ بِصَدْرِهِ نَحْوَهَا...»** [1]، وفي رواية مسلم – وهي أكثر توضيحاً لما أردناه – «... **ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمِ أَهْلِ الأَرْضِ فَدُلَّ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ، فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مِائَةَ نَفْسٍ فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحُولُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ التَّوْبَةِ؟! انْطَلِقْ إِلَى أَرْضِ كَذَا وَكَذَا فَإِنَّ بِهَا أُنَاسًا يَعْبُدُونَ اللَّهَ فَاعْبُدِ اللَّهَ مَعَهُمْ وَلا تَرْجِعْ إِلَى أَرْضِكَ فَإِنَّهَا أَرْضُ سَوْءٍ فَانْطَلَقَ...»** [2]، والشاهد فيه أن بعض الأماكن ليست مناسبة للصالحين، وأن تغييرها – عند استعصائها على الإصلاح – من الصلاح ومن الغيرة عليه وحمايته.

وثاني الدليلين ما ورد بالقرآن الكريم بخصوص قصة لوط، عليه السلام، مع قومه، قال تعالى: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ أَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِ ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴿٨١﴾ وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ (الأعراف:80-82)، فالفاسدون يرفضون–حماية لمصالحهم– الصالحين بينهم؛ لأن الصالح لا يقبل بوجود الفساد، فمن باب أولى أن لا يقبل بجعل هذا الفساد وسيلة للاستعباد، ولذلك يحرص الفاسدون على التضييق على الصالحين والتشهير بهم ومطاردتهم، وإبعادهم...، وليست تهمة لوط عليه السلام ومن معه إلا أنهم يتطهرون، فالطهارة عندهم تهمة موجبة للطرد، ولا أدل على شدة الفساد من هذا: أن يعترف الفاسد بصلاح المصلح، وأن يعتبر هذا الصلاح مهدداً لوجوده، ومن ثم يعلن صراحة

---

(1) صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب، 855/2، حديث رقم 3470.

(2) صحيح مسلم، كتاب التوبة، باب قبول توبة القاتل وإن كثر قتله، حديث رقم 2766.

رفضه له؛ بل رفضه لوجوده أمامه، ويُسلَب عندها الصالح حتى من أبسط حقوقه وهو حقه في أرضه، وتصير- وفق الدليل السابق- الأرضُ أرضَ الفاسدين: ﴿ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْ ﴾ فهي قريتهم، ولوط ليس له نصيب فيها بزعمهم.

والدليلان معاً يتضافران لرسم معالم قضية جوهرية في الدليل العقلي على ضرورة الإصلاح هي أن الصلاح يمكن أن يدعيه الجميع ولكن ممارسة الإصلاح مسألة أخرى، فما أيسر التظاهر بالصلاح؛ ولكن الابتلاء هو الذي يسمح بالتمييز بين الطيب والخبيث، بين الصالح حقاً ومدعي الصلاح، بين من يعيش للإصلاح ومن يعيش بالإصلاح، وإنما يكون الابتلاء والاختبار عند ممارسة الصلاح، ومن ثم فالذين يتظاهرون بالصلاح ويدعونه ويعيشون به هم أقل الناس إصلاحاً، ومنهم من هم أشد الناس عداوة له، وإنما ألجأهم إلى التظاهر به ما رأوه في ذلك من إمكانية تحقيق مكاسب سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية؛ ولأن ذلك لا يكلفهم شيئاً ولا يدفعهم إلى إحراق أوراقهم أمام من يقاسمونهم تلك المصالح، والأكثر من ذلك أن صلاح هؤلاء متوقف على مفهوم الصلاح كما هو سائد في المجتمع وكما يراد له أن يكون مهيمناً، وبذلك يحرص هؤلاء باستمرار على وضع عين على الصلاح باعتباره ورقة رابحة وعين على ما تقبله جهات عليا من ذلك الصلاح وتوالي وتعادي بناء عليه. وما أكثر الحالات التي يفاجأ فيها المرء بخروج أقوام طالما ارتَدَوا جلباب الصلاح على الناس بأفعال عتاة الفاسدين المفسدين؛ بل ما أكثر ما يُرى مِنْ سعي مثل هؤلاء – لما لم يعد ادعاء الصلاح مربحاً – لدى تلك الجهات العليا بالوشاية بالصالحين المصلحين والتحريض عليهم بحق وبغير حق؛ لأن الأوراق تغيرت وادعاء عداوة الصالحين صار الورقة الرابحة، وقد يكون هؤلاء أشد عداوة للصالحين من غيرهم.

6- والإصلاح ضروري للصالح؛ لأن المصدور لابد أن ينفث، ولأن كل إناء بما

فيه يرشح، وهو قد امتلأ صلاحاً فلا يملك إلا أن يبحث عن طريق **لتصريف ذلك الفيض الرباني**، فإن هو أبى أو قصر قولاً ودعوة وجد أفعاله تدعو كثيراً من الناس إلى الاقتداء والتشبه به، وفي كثير من الأحيان لا يحتاج الآخر إلى أكثر من أن يرى بعينيه نموذجاً فعلياً للصلاح ليقتنع أن وجود الصلاح في زمن الفساد ممكن، ولكن هذا النوع من ممارسة الصلاح لا يخلو من مزالق ومهالك بما في ذلك أنه يمنح الفساد– بما ارتضاه الصالح من مهادنة وصمت – فرصة للتقوي والانتشار تمهيداً للانفراد بالساحة والإعلان عن ذلك بالصوت الواضح الفاضح كما فعل فرعون عندما قال: ﴿ ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ﴾ (غافر:26)، وعندما قال: ﴿ مَآ أُرِيكُمۡ إِلَّا مَآ أَرَىٰ وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ ﴾ (غافر:29). وإنما أوصله إلى هذه الحال وجود صالحين ساكتين، ومن هؤلاء ذلك المؤمن الذي كان يكتم إيمانه: ﴿ وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ﴾ (غافر:28)، فلم يملك بعد طول صمت إلا أن يفيض، وأن يسجل شهادته على عصره، مع أن تلك الشهادة كان يمكن أن تكون قبل ذلك، وكان يمكن أن تقلص من حدة الفرعنة.. والذي يهمنا من ذلك أن الفساد عندما يخلو له الجو يتغول ويستبد فلا يرضى إلا بأن يحارب الصلاح حفاظاً على وجوده ومصالحه.

7- **وممارسة الصلاح لها من النفع والبركة ما الله به عليم**، فعندما نتتبع ما أعده الله لمن جمع بين الإيمان والعمل الصالح – أي بين صلاح القلب في العلاقة بالله وممارسة الصلاح في الواقع في العلاقة مع الناس – نجد جوائز عديدة منها:

- وعْد من الله بالمغفرة والأجر العظيم (المائدة:9)؛ الكبير (الإسراء:9)؛ الحسن (الكهف:2)؛ الوافي (آل عمران:57)؛ غير الممنون (فصلت:8)؛ الهداية (يونس:9)، والرحمة (الجاثية:30)؛ سيَجعل لهم الرحمان وداً (مريم:96)؛ الاستخلاف والتمكين في الأرض والأمن (النور:55)؛ لا يخافون ظلماً ولا هضماً (طه:112)؛ الدرجات العلى (طه:75)؛ الرزق الكريم (الحج:50).

وتعدد الجوائز الربانية لهذه الطائفة وطول قائمتها دالان على أن أمر الجمع بين الإيمان والعمل الصالح ليس بالهين؛ بل دونه عقبات من الهوى، والشهوة، والغفلة، وإغواء شياطين الجن والإنس، ولذلك وصف الله عز وجل من جمعوا بين الإيمان والعمل والصالح بصفتين جليلتين: تدل إحداهما على عددهم: ﴿وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ (ص:24)، وتدل الثانية على قيمتهم بين سائر الخلق: ﴿هُمْ خَيْرُ ٱلْبَرِيَّةِ﴾ (البينة:7).

إن ما سبق يجعلنا نخلص إلى أن الإصلاح باعتباره ممارسة للصلاح ليس مجرد اختيار، بل هو ضرورة، ورأينا كيف أن ضرورته نابعة من الاستجابة للنص الشرعي ولمتطلبات التدافع على أرض الواقع.

وإذا كانت ممارسة الصلاح بتلك الأهمية والقيمة فإن أسئلة عديدة تواجهنا بخصوص ذلك منها: ما حدود ممارسة الصلاح والإصلاح؟ وكيف تكون فاعلة؟ ومتى؟ ولماذا؟ وهي أسئلة يحاول أن يجيب عنها المحور التالي.

ثالثاً: من قضايا الإصلاح:

حتى تكون ممارسة الصلاح على بصيرة لزم أن تكون ذات **مرجعية** تستند إليها، **ومنهج** تسير وفقه، ثم **إنسان صالح** يعض عليهما بالنواجذ، ومن ثم رأينا أن نخص كل

عنصر من هذه العناصر الثلاثة بوقفات.

أ- مرجعية الإصلاح:

أصـــل المرجعية في اللغة «رجع» الدال على «الرد والتكرار»[1]، وكأن المرجعية لما اشتقت من ذلك الأصل عودة بالشيء إلى أصله، ورد إليه، وهو معنى قريب من المقصود بهذا المصطلح، إذ مما يقصد به الخلفية - النصية خاصة - التي ينطلق منها المرء ويتحرك وفقها، ويعني هذا أن مرجعية المصلح وفق ما ندرسه في موضوعنا هذا تقوم على النص القرآني والحديثي، وبذلك يكون النص إطاراً نظرياً للمصلح يمارس إصلاحه بناء عليه، والسؤال الذي يواجهنا هنا: ما علاقة الإصلاح بالمرجعية؟ وجواب ذلك تقدمه هذه النماذج ضمناً ونوضحه بعْدُ:

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾ (البقرة:11-12).

وقال: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ ۚ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ﴾ (الأعراف:127).

وقال: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِىٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُۥٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِى ٱلْأَرْضِ ٱلْفَسَادَ﴾ (غافر:26).

والنصوص الثلاثة سالفة الذكر تثير مسألة في غاية الأهمية هي: ما مفهوم الإصلاح ووفق أي مرجعية؟ والذي يلاحظ من تلك النماذج أن مفهوم الإصلاح فيها غير الإصلاح الذي نقصده نحن ونتحدث عنه، فلم يبق إلا أن خلفيتنا مختلفة، أي أن المرجعية التي يستند إليها هؤلاء غير التي نستند إليها نحن. فنحن عندما

(1) مقاييس اللغة، مادة«رجع»، 490/2،.

نتحدث عن الإصلاح إنما نتحدث عنه بناء على مفهوم القرآن والسنة له، وهو لذلك قد يكون مخالفاً لفهوم أخرى لدى أقوام آخرين، ومن ثم وجدنا فرعون وملأه يعتبرون موسى، عليه السلام، مفسداً، والأمر نفسه يقال عن القوم الذين تحدث عنهم النص الأول، فهؤلاء جميعاً يعتبرون ما يقومون به إصلاحاً؛ وليتهم وقفوا عند هذا الحد؛ بل تجاوزوه إلى اعتبار ما نعده نحن صلاحاً بأنه فساد، فأين الإصلاح وأين الإفساد؟ ومن المصلح ومن المفسد؟ لا ريب أن الذي يحدد ذلك هو المرجعية، كما قلنا آنفاً، وعند هذا الحد لا يضيرنا في شيء أن نعد صالحاً ما يعده غيرنا فاسداً ما دامت مرجعيتنا تبين لنا الصالح من الفاسد، ويكفينا مثلاً أن النص الأول يبطل الله عز وجل فيه زعم القوم بكونهم مصلحين بقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ (البقرة:11-12)، فالله عز وجل ينفي أن يكونوا صالحين، ويؤكد أنهم مفسدون، لكن مشكلتهم أنهم لا يشعرون، وكيف يشعرون وقد عطلوا أهم آلة للشعور وهي آلة الإيمان باعتبارها البوصلة، التي تحدد لنا اتجاه الإصلاح واتجاه الإفساد. ومهمتنا مع هؤلاء وفق الآية نفسها أن نعينهم على الشعور أولاً بالخلل الحاصل لديهم في المفاهيم، وثانياً بسبب ذلك الخلل، وثالثاً بكيفية تجاوزه لإبصار معالم الطريق وفق البوصلة الربانية، ولا ريب أنها بوصلة سديدة؛ لأنها تستمد قيمتها من علم الله تعالى، ولذلك قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ (البقرة:220)، وعلمه هذا يوجب علينا أن نعتمد وحيه وحده دون سواه مرجعيتنا في تحديد الصلاح والفساد، فكيف إذا أضفنا إلى ذلك أننا في كثير من الأحيان – ونحن نؤمن بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً – نتيه عن الطريق، أو نصاب بعمى الألوان، أو ضبابية الرؤية، ونمارس

الفساد بنية الإصلاح؟! لذلك قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ﴿١٠٣﴾ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (الكهف:103-104)، لذلك نجتهد من أجل أن نتجنب التيه، وندعو الله أن يبصرنا بمعالم الطريق، ونحن يومياً ندعوه سبحانه وتعالى سبع عشرة مرة على الأقل في صلواتنا أن يهدينا الصراط المستقيم، وهل هذا الصراط الذي ندعو الله تعالى أن يهدينا إليه غير المنهج في أبهى صورة وأعظم لفظ دال عليه(1).

فالمرجعية إذاً تستمد أهميتها من كون الأطراف التي تتحرك على أرض الواقع لها تصوراتها ومواقفها المنطلقة من مرجعيتها، وذلك ما يدفع المصلح في اتجاهين: اتجاه ممارسة الإصلاح بالمفهوم الذي تراه المرجعية المعتمدة إصلاحاً، واتجاه الموقف من الآخر وحدود التعامل معه وعناصر الاتفاق والاختلاف، والأهداف المشتركة والأهداف المتعارضة...وذلك كله يفرض على المصلح أن يكون على بصيرة من مرجعيته ومن مرجعية الأطراف الأخرى، فضلاً عن الواقع الذي يشهد تدافع المرجعيات.

وحال المصلح وفق ما سبق قائم على النظر بعين على النص، باعتباره مرجعه ومستنده وعنصر قوته وهويته... وعين على الواقع، بما يتضمنه من أطياف فكرية وعقدية وبما يثيره من مشكلات وما يتطلبه من مواقف، وهو لذلك كله لا يملك إلا أن يتحول النص على يديه إلى قوة حية طافحة بالحيوية وواقع يتسم بالسلاسة والانسيابية، وإن كان قد ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، وهو يعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك كله، وأن عليه أن يغير ذلك الفساد بما يملك من وضوح الرؤية وقوة الإرادة المستمدين من طبيعة المرجعية وامتزاجها بدمه ولحمه مندفعاً في ذلك نحو جعل ذلك الواقع ينسجم مع مرجعيته، منطلقاً في ذلك من نفسه بتحويلها إلى مرجعية حية

(1) الشاهد البوشيخي، القرآن الكريم طبيعته ووظيفته، سلسلة رسائل الهدى، ط2 (منشورات المحجة، 2001م) ص21.

في أرض الواقع، قدوته في ذلك رسول الله ﷺ كما عبرت عن ذلك أم المؤمنين عائشة، رضي الله عنها، لما سئلت عن خلقه فقالت: «كان خلق رسول الله ﷺ القرآن»[1]، فالرسول ﷺ حوّل النص إلى ممارسة، وأُشبع به وتشربه حتى صار قرآناً يمشي على الأرض. وعندما يتحول المصلح – وفق ما سبق – إلى نص يمشي على الأرض فإن ذلك يعني أنه قد دخل مرحلة التوفيق من بابها الواسع.

والحاجز الأول الذي يجب على المصلح تجاوزه بنجاح هو حاجز التوفيق بين النص والواقع المتسم بالتغير المستمر، سيما أن من النصوص ما هو ثابت لا يقبل تغييراً... ولذلك يجد المصلح نفسه في الخطوة الأولى ملزماً بالتبصر بالثابت والمتغير في مرجعيته، وعندما يحدد ذلك يكون قد حدد طبيعة العلاقة بالواقع، ويتطلب منه ذلك مراعاة ثلاثة أمور:

- العلم بالثابت والمتغير في المرجعية.
- العلم بالواقع.
- القدرة على التحرك في الواقع وفق المرجعية.

والمصلح قبل ذلك وبعده معتز بمرجعيته، مستعد للدفاع عنها والتضحية من أجلها؛ لأنه لا يرى لحياته قيمة دونها، ولا يرى لوجوده معنى إلا إذا عاش وفقها، وهو بذلك يجعل تلك المرجعية محددة لطبيعة علاقته بواقعه بما فيه من مؤسسات وأطراف، ويدفعه ذلك دفعاً نحو ممارسة الصلاح بالشكل الذي تعتبره مرجعيته صلاحاً، وإن كانت المرجعيات الأخرى لا تراه كذلك، إذ ليس من شرط مرجعيته أن يتخلى عن ثوابته من أجل إرضاء مرجعيات أخرى؛ بل من شرطها أن يكون

(1) الحاكم، المستدرك على الصحيحين، 426/2، حديث رقم 3481، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، 1411هـ/1990م)، وقد أعقبه الحاكم بقوله:«هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه».

محسناً في التعامل مع الآخرين مهما اختلف معهم وفق ما يقتضيه مفهوم الإحسان على مستوى العمل والمعاملة.

ب- منهج الإصلاح:

يقوم المنهج - من ضمن ما يقوم عليه - على ضوابط وآليات.

أما الضوابط فهي مجموع القواعد الحاكمة للسلوك والمؤطرة له، ولسنا نجد ضابطاً ذي علاقة وثيقة بالإصلاح ألح عليه القرآن الكريم أكثر من ضابط الإحسان، ومن ثم رأينا أن نتناوله وحده باعتباره جامعاً لغيره ونموذجاً.

وأما الآليات فالمقصود بها ما يتعلق بتحويل الصلاح وفق ضوابط معينة إلى ممارسة فعالة وفاعلة، ولم نر أفضل من آلية العمل الجماعي للتمثيل لتلك الآليات وتقديم نموذج لما يمكن أن يستفيده الإصلاح منها.

1- ضابط الإحسان:

يرتبط الإحسان بالإصلاح ارتباطاً وثيقاً، كما رأينا عند حديثنا عن مفهوم الإصلاح، فالصلاح كما قال الراغب: قوبل في القرآن « تارة بالفساد، وتارة بالسيئة، قال تعالى: ﴿خَلَطُواْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ (التوبة:102)... »[1]، ومقابلته بالسيئة دالة على أنه عمل حسن، مما يفيد أن الإصلاح إحسان.

وأصل الإحسان في اللغة حَسُنَ، ومنه الحُسن وهو ضد القبح[2]، و«الحُسن: عبارة عن كلِّ مبهج مرغوب فيه» [3]، والإحسان: الاستقامة، وضد الإساءة[4]، وهو

(1) مفردات ألفاظ القرآن، مادة «صلح» ص490.

(2) مقاييس اللغة، مادة «حسن»، 57/2.

(3) مفردات ألفاظ القرآن، مادة «حسن»، ص235.

(4) لسان العرب، مادة «حسن»، 114/13.

نوعان[1]:

- **الإحسان إلى (الغير)**، أي: الإنعام عليهم.

- **الإحسان في الفعل**، «وذلك إذا علم عِلماً حسناً، أو عمل عملاً حسناً»[2].

ومدار الإحسان في القرآن الكريم على ذينك المعنيين، ففي **إحسان المعاملة** قال تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾ (البقرة:178)، وقال: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ (الأنعام:151)، وفي **إحسان العمل** قال تعالى: ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ (الكهف:30)، و﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ﴾ (يونس:26).

وفي حديث جبريل عليه السلام لما سأل الرسولَ ﷺ: «**مَا الإِحْسَانُ؟**» أجابه ﷺ قائلاً: «**أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»[3]. والعبادة هنا سلوك تتحكم فيه الخشية من الله عز وجل، ويستحضر فيه العبدُ جلالَ الله وعظمتِه وعلمِه وغير ذلك مما يشكل زاجراً عن المنكرات، وحافزاً إلى الخيرات، فهو يجعل العبدَ «يعبد الله كأنه يراه إجلالاً ومهابة وحياء ومحبة وخشية»[4]. ويفيد ما سبق أن **الإحسان توخي عناصر الحسن في الأعمال والعلاقات**، وأن التقصير في شيء من ذلك لا يعد إحساناً. والجواب النبوي يتضمن أمرين: «أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى أنه يراه بعينه، وهو قوله كأنك تراه، أي: وهو يراك.

(1) مفردات ألفاظ القرآن، مادة «حسن»، ص236.

(2) المرجع السابق.

(3) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلم الساعة، 32/1، حديث رقم 50.

(4) مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن محمد بن قاسم وابنه محمد (الرباط: مكتبة المعارف، دون رقم الطبعة أو تاريخ الطبع) 28/15.

والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل، وهو قوله: فإنه يراك. وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته»[1].

والإحسان – بناء على ما سبق – عبادة لله تقتضي دوام المراقبة والحذر، وفي الوقت نفسه التزام الطريق المرسوم لتلك العبادة، ويستلزم ذلك أن يُخلص العبد في عبادته، وأن يوافق ما أمر الله به ويجتنب ما نهى عنه، وهذا ما عبر عنه الفضيل ابن عياض، رحمه الله، بعبارة لطيفة عند تفسيره لقول الله عز وجل: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (هود:7؛ الملك:2)، قال:«أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا على ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصاً ولم يكن صواباً لم يقبل، وإذا كان صواباً ولم يكن خالصاً لم يقبل، حتى يكون خالصاً صواباً؟ والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة»[2].

فالإخلاص في العبادة ومراعاة أن تكون صواباً شرطان أساسيان للإحسان، يضمن أولهما أن يتصرف المرء في عمله وسلوكه مبتغياً وجه الله عز وجل وحده، ومراعياً أنه يراقبه في سره وعلانيته، وأنه مطلع عليه في ذلك كله؛ ويضمن ثانيهما أن تكون العبادة على السُّنة، سواء أكانت من العبادات الخاصة من صلاة وصيام وغير ذلك أم كانت من العبادات العامة كالعمل والتجارة وغير ذلك، وإن كانت السنة في الأولى أظهر وفي كثير من أنماط الثانية آداباً عامة.

إن حديث الرسول ﷺ عن الإحسان، كما قال ابن حجر: «أصل عظيم من أصول الدين، وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين، وهو عمدة الصديقين، وبغية السالكين، وكنز العارفين، ودأب الصالحين، وهو من جوامع الكلم التي

---

(1) أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح البخاري (بيروت: دار المعرفة، 1379هـ) 120/1.
(2) مجموع فتاوى شيخ الإسلام، 333/1.

أوتيها ﷺ»[1].

والذي يخلص إليه المرء أن الإحسان ضابط يشمل الحياة كلها، وذلك ما عبر عنه الرسول ﷺ بقوله: «**إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ**...»[2]، ولكونه ضابطاً عاماً شاملاً جامعاً وجدنا النووي في شرحه لهذا الحديث يعتبره «من الأحاديث الجامعة لقواعد الإسلام»[3].

والإصلاح – ليكون بالإحسان – لا بد أن يراعي أمرين: الإحسان في الممارسة، والإحسان في التعامل مع الخلق.

أما في الممارسة فلكون الضابط الإحساني يتطلب **الإجادة في العمل** وفق أحد معنيي الإحسان، كما رأينا سابقاً، فلا بد من توفير شروط نجاح العمل ليقبله الله تعالى، وأول ما يتطلبه ذلك قوة ذاتية دافعة هي قوة الإرادة التي تتوقف على ضمير حي فعال، والمصلح المحسن لا يملك إلا أن يكون كذلك؛ لأن الإحسان يفترض فيه رقابة ذاتية قائمة على استحضار دائم للحضور الإلهي: «**فَإِنَّكَ إِنْ لا تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ**»، كما يفترض هاجساً يؤرق نفساً متشوقة إلى لقاء ربها ونيل رضاه، وهو بذلك يحمل هماً دائماً يكمن في أن يكون إصلاحه مقبولاً من لدن مولاه، سواء ألقي الترحيب والدعم من الخلق أم لا، وإن كان هذا يؤثر على درجة حرارة جهوده، لكنه لتعامله مع الله تعالى يحرص أن يتوخى – ما استطاع إلى ذلك سبيلاً – شروط قبول عمله التي ليست سوى شروط نجاح جهوده الإصلاحية.

---

(1) فتح الباري، 120/1.

(2) صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الصيد والذبائح، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل وتحديد الشفرة، حديث رقم 1955.

(3) المرجع السابق، 90/13.

وأما في الإحسان في التعامل مع الخلق فلأن من معاني الإحسان **حسن المعاملة**، كما سبق، ومن مقتضيات ذلك أن يتعامل مع الإنسان مثلاً – وهو جزء من الخلق – باعتباره إنساناً كرمه الله عز وجل: ﴿۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ (الإسراء:70)، وذلك التكريم يفيد أن التعامل مع الإنسان ينبغي أن يأخذ بعين الاعتبار تلك الصفة التي تلحق به تلقائياً، ولا علاقة لها بلون أو عرق أو دين أو لغة؛ بل لها علاقة بإنسانيته، ولذلك قال الله عز وجل ﴿بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ ولم يخص فئة من الناس. «وإنعاماً في تكريم الله عز وجل للإنسان عبر الله تعالى عن ذلك بالفعل الماضي الدال على التحقق في زمن خلا، ولذلك فليس بمقدور الإنسان أن يتراجع عن ذلك التكريم لأنه وقع وانتهى الأمر، وقد أمضاه رب العزة، وصعوبة التراجع عنه كامنة من جهات:

- لأنه وقع في زمن قد ولى.
- لأنه رُبط بالأصل.
- لأن التكريم لا يتجدد، ما دام موروثاً، فهو صفة ثابتة في الإنسان باعتباره إنساناً».

ومن أولى أولويات مراعاة ذلك التكريم في ممارسة الإصلاح أن يراعي حرماته وحقوقه.

2- آلية العمل الجماعي:

العمل الجماعي ضرورة شرعية وعقلية:

أما كونه ضرورة شرعية فلقوله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:104)، وقد عبر الله

عز وجل عن ذلك بالأمة، والأمة المقصودة «هي الأمة المسلمة بما تتضمنه من خصوصية في المكونات، وما تستلزمه من خصوصية في الأمر الجامع لها الذي هو الإسلام من وحدات: وحدة الإله، ووحدة الكتاب، إلى وحدة الإمام، بغض النظر عما آلت إليه اليوم في تمثلها للإسلام وتمثيلها للإسلام»[1]، وجعل ثمرة ذلك الجهد الجماعي لهذه الأمة الفلاح، فهم مفلحون؛ لأنهم

- يدعون إلى الخير.
- يأمرون بالمعروف.
- ينهون عن المنكر.
- يمارسون ذلك جماعياً، كما تدل عليه صيغة الجمع التي وردت الآية كلها وفقها.

ومن أدلة ذلك أيضاً قول الرسول ﷺ: «**يَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ**»[2].

وأما كونه ضرورة عقلية؛ فلأن الفساد منظم ممكَّنٌ، له في الأرض، تدعمه قوى ومؤسسات، وله ميزانيات وواجهات وأرصدة وقنوات، ومَنْ هذه صفته من السذاجة مواجهته بالنوايا الطيبة والجهود الفردية.

ولقد أتى علينا حينٌ من الدهر لا نرى للعمل الجماعي إلا صورة واحدة هي أن يكون في شكل «جماعات إسلامية» و«حركات إسلامية»، وأتى على فكرنا الإسلامي زمان لا يرى فيه «يد الله» إلا مع «الجماعة الإسلامية»، بالمفهوم الحركي،

---

(1) الشاهد البوشيخي، فقه واقع الأمة، مجلة رسالة القرآن، عدد 2، 1425/1426هـ-2005م، ص29.

(2) جزء من حديث أخرجه الترمذي في سننه (وقال: هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ) ونصه: **إِنَّ اللَّهَ لا يَجْمَعُ أُمَّتِي أَوْ قَالَ: أُمَّةَ مُحَمَّدٍ ﷺ عَلَى ضَلالَةٍ، وَيَدُ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ».**

وأتى أيضـــاً عليه زمان وهو لا يرى الخروج من الحركة إلا خروجــاً من الجماعة، وخلعاً ليد الطاعة، وأنه ممن شذ، «**وَمَنْ شَذَّ شَذَّ إِلَى النَّارِ**»، ولم يبق أمام المنسحب إلا أن ينتظر إباحة دمه، ثم منهم من أبيح دمه فعلاً في لحظات وصل فيها الفكر التكفيري أوجه.

ولقد آن الأوان لنَفْهم ونُفْهِم أن العمل الجماعي المقصود هو «**العمل بروح الفريق**» - ونحب أن نعبر عنه بـ«**كيمياء الروح الجماعيــة**» - وأنه التعاون على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان، والعمل الحركي بذلك ليس سوى نمط من أنماط العمل الجماعي ونوع من أنواعه، وليس بالضرورة هو الأفضل، أو على الأقل ليس بالضرورة هو الأفضل للجميع، وأن هناك أنواعاً من العمل الجماعي أجدى وأنفع كالبحث العلمي وإنضاج التصور الذي نريده بديلاً عن تصورات ما أنزل الله بها من سلطان، وتقديم بدائل لما نحن غارقون فيه مما لا يمكن أن يتم في أجواء التنافس على كسب الأعضاء الجدد وتوسيع القواعد استعداداً للاكتساح، كما قيل وظل يقال زماناً، وإنما يتم إنضاج ذلك التصور، وصياغته صياغة تناسب العصر في مجالس العلم ووفق أخلاق العلماء وفي جلسات علمية هادئة تشتغل على ما ينفع الناس ويمكث في الأرض، لا ما يحقق مصالح ما في أقرب وقت ممكن، وهي جلسات يسود فيها اليقين أن ما ينبغي أن يقدم هو الحق الذي يجب أن يدفع الباطل إلى الانسحاب، وأنه ليكون كذلك لا بد أن يكون متسماً بروح العلم، ومشبعاً بروح الحضارة، وبعيداً عن الرؤية بالأبيض والأسود فقط؛ بله الرؤية بعين واحدة، وبعيدا عن «تقديس الأشخاص والرموز» و«تصنيم التنظيم».

والعمل الجماعي وفق ما سبق هو **الآلية التي تمكننا من إنجاز أكبر قدر من**

الأعمال بأقل جهد ممكن، بينما العمل الفردي يسمح **بإنجاز أقل قدر ممكن من الأعمال بأكبر جهد ممكن**، فإذا ما انعكس الأمر وصار العمل الجماعي ينجز ما يمكن أن ينجزه فرد واحد، أو أقل مما يمكن أن ينجزه شخص بمفرده فتلك علامة شيخوخة ذلك العمل الجماعي وانتقاله من الإيجابية إلى السلبية، ومن الإنتاج إلى الاستهلاك، بما في ذلك استهلاك طاقات أعضائه وإحراقها دون وجه حق، وعندها لن يكون أمام أفراد ذلك التنظيم إلا أن يؤسسوا تنظيمات بديلة أكثر تخصصاً وفائدة وإنتاجية.

وآفة العمل الجماعي أنه في لحظات من تلبيس إبليس يتحول فجأة من مجرد آلية فيها بركة إلى هدف في ذاته، وتلك علامة من علامات شروعه في الانحدار، إن لم يكن قد خطا خطواته الأولى أصلاً في المنحدر، ومعنى ذلك أن العمل الجماعي ينبغي أن يكون على بصيرة من عوائق الطريق، وفي مقدمة ذلك ما يحوِّل ذلك العمل الجماعي إلى عمل فردي حتى وهو يتم بالجماعة ويستنزف جهود الجماعة ويسمى جماعة، وما أكثر الأعمال الفردية التي يسميها أصحابها جماعية، وما أكثر ما ينتج أفراد ما لا تنتجه جماعات من هذا النوع(!)

وإنما العمل الجماعي المقصود ذلك العمل الذي يكون هدفه المرابطة على ثغرة من ثغرات الأمة حَذِراً أن تؤتى الأمة من قبله، وتكون مع ذلك **ثماره حصيلة تفاعل كيمياء الروح الجماعية بما تتضمنه من ثمار زائدة عما يمكن أن يحققه العمل الفردي**، ومن ثم يكون بصيغة واحدة موحدة – مع أنه يتكون من مجموعة من الأفراد– حاملاً مشروعاً يجتهد من أجل تحقيقه، ويَعْتَبِر ذلك قربى، ويجعل حياته هينة

من أجله، ويستعد ليوم لقاء الله ليجيب عندما يُسأل: عبدي، لم فعلت كذا؟ بأن يقول: يا رب، لكذا وكذا. ولا تزيده الجماعة التي يعمل معها في مركز أو معهد أو مجموعة بحث أو مشروع أو جمعية...إلا تلذذاً بذلك العمل وحرصاً على نجاحه واستمراره، ويتحول ذلك الجهد إلى سمة مميزة لحياته، وهمه الأكبر، فيعطيه من وقته وماله وجهده فوق ما يعطي غيره. إنه بعبارة موجزة: **يجعل ذلك العمل يكبر فيه، ولا يسمح لنفسه أن تكبر على حساب ذلك العمل.**

ج- إقامة الإنسان المصلح:

غني عن البيان أن أولوية الأولويات إقامة الإنسان الصالح ليقوم بدور إصلاحي وفق مرجعية إسلامية ومنهج مستمد منها، ولكن أي إنسان هو؟ ما مواصفاته؟ ومتى يكون مصلحاً؟ وما الذي يؤهله لتلك المهمة؟ وما الذي يضمن في أقصى حد ممكن أن يعيش للإصلاح لا به وعليه؟

ونحن نقدِّر أن إقامة الإنسان الصالح (في نفسه ومجتمعه) يمكن أن تتم بنجاح إذا وُفقنا في جعله- بالمفهوم القرآني- **حياً قوياً أميناً**.

1- الإنسان الحي:

يعيش أناس كثيرون في واقعنا أحياءً في ميزان الناس أمواتاً في ميزان الله، قال تعالى: ﴿أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ (الأنعام:122)، وقال الرسول ﷺ: «**مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ**»[1]، فالحي من حل فيه الوحي، والميت من خلا قلبه منه، ولكن كيف نحيي هذا الموات؟ كيف

(1) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب فضل ذكر الله عز وجل، 1616/4، حديث رقم 6407.

نجعل الحياة بالمفهوم الربـــاني تعود إليه من جديد؟ يحيلنا الله عز وجل على الدواء الشافي: القرآن الكريم والسنة النبوية، بما فيهما من ماء الحياة، ذلك أن هذا الإنسان المكون من الطين والروح منهمك في تغذية جانب الطين فيه فتموت روحه من شدة الإهمال ومن قطع الإمداد عنها، وهي لا تشتغل وتحيا وتتغذى إلا بالروح الإلهية[1]، فهو الذي نفخ فيها من روحه أول مرة، وبروحه التي بثها بين الناس نزوِّد الروح التي فينا بما يلزمها من طاقة، قال تعالى عن الروح الأولى: ﴿ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ۝ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ﴾ (السجدة:6-9)، لقد كان هذا الإنسان طيناً ثم بُعثت فيه الحياة. وقال تعالى عن الروح الثانية التي جعلها في متناول أيدينا للتزود بها حفاظاً على تلك الحياة: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلْأُمُورُ﴾ (الشورى:52-53)، و«الروح ها هنا هو كتاب الله عز وجل، هو التعبير عن سر الوحي المشعر بأنه يحدث في الإنسان من الخصائص ما يحدثه الروح حين ينفخ في الإنسان...إن الإنسان – الفرد والمجتمع – معاً يصير بالقرآن خلقاً آخر، لكون هذا القرآن ذا طبيعة تشبه طبيعة الروح تماماً، ولذلك كان التعبير فيه كالتعبير عن الروح؛...نفس اللفظ تقريباً. وهذه الأمة لها جسد وروح. الجسد هو هذا الذي نراه مبعثراً في وسط الكرة الأرضية. لكن روحه ليست حالة فيه الآن, هي منفصلة عنه، ولذلك لا توجد فيه خصائص الحياة التي توجد في الجسم الحي، الذي له روح وبه الروح، ذلك بأن

(1) الشاهد البوشيخي، القرآن والإنسان، جريدة «المحجة» المغربية، عدد 282(1428/9/3-2007/9/16)، ص 10.

الروح حين تحل في الجسم تحييه،...فالحياة لابن آدم في الحقيقة لا تكون إلا بوجود الوحي، إلا إذا نفخت فيه روح الوحي»[1].

مهمتنا إذاً في المقام الأول أن نعمل – ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً – على «استعادة الروح» التي فقدناها زماناً، ثم إحلالها في هذه الأجساد التي أنهكها بعدها عن ربها، وأول ذلك أن نعيد القرآن الكريم والسنة النبوية إلى مركز اهتماماتنا؛ لأن ذلك يضمن لنا في المقام الأول استعادة المناعة التي فقدناها أيضاً فصرنا عرضة لتيارات هوائية شرقية وغربية، شمالية وجنوبية.

ولقد أتى علينا زمان لم نكن نرى فيه الأولوية إلا لتغيير الأنظمة والتخلص من الاستبداد ثم فجأة اكتشفنا أننا بغير أصل ثابت، وإذا بعواصف السياسية وطواحين الصراع تقذف بنا على قارعة الطريق، ثم إذا بنا نكتشف أننا صرنا نحن أيضاً غير محصنين بما يكفي لمواجهة تقلبات الجو، وأما من تركناهم خلفنا فقد وجدنا السامري قد زين لهم العجل وأغراهم به، فلا نحن امتلكنا قواعد أمامية تسمح لنا بالمزيد من التقدم في معارك حامية الوطيس، ولا نحن حافظنا على خلفيتنا وحصنَّاها. لا أصل ثابت ولا فرع في السماء.

ولعلنا الآن أدركنا أننا لم نكن سوى «أحجار على رقعة شطرنج»، وأن الرياح الشرقية والغربية صادفت منا «هوى في الفؤاد» فطرنا معها أكثر مما كانت تطمح هي نفسها إليه، والذي يطير بلا مفتاح للنزول لا يملك إلا أن يصطدم بالأرض.

لعلنا أدركنا أيضاً أننا أخطأنا في بعض ما سلكناه من مسارب، وأن أول معالم

(1) الشاهد البوشيخي، القرآن الكريم روح الأمة الإسلامية، سلسلة رسائل الهدى، منشورات المحجة، ط4، 1422هـ/2001م، ص17-19.

الطريق أن تحصن أمتنا أولاً بتخصيبها بماء الحياة، بجعل الوحي يحل فيها من جديد، وأول ذلك أن نشيع ثقافة الحفظ بعد أن انطمست أو كادت بدعوى أن الأولوية للفهم، فلا نحن فهمنا ولا نحن حفظنا، أولويتنا هي أن نشتغل بعيداً عن حلبة الصراع في مشاريع هادئة مثل تشجيع حفظ القرآن الكريم والسنة النبوية وتعميم ذلك، بما يتطلبه ذلك من دور للقرآن ومؤسسات ومراكز علمية يجب أن تظل بعيدة عن المواقف السياسية والنزاع مع السلطة فضلاً عن النزاع بين المصلحين، هدفنا أن تكون أمتنا محصنة تحصيناً ذاتياً، وليس ضد السلطة.

لقد رأينا سلطات انشغل بها أقوام زماناً لم تعد لها في غمرة الطاحونة العالمية من سلطة، وأنها كما قيل: «أسد علي وفي الحروب نعامة»، ولم تعد سلطٌ تتحرك إلا بضغطة على زر في جهاز يتحكم عن بعد. مهمتنا الآن أن نحصِّن -كما قلنا آنفاً - أمتنا ضد موجة عالمية قد تقتلعنا جميعاً، وذلك التحصين هدفه توفير المناعة الذاتية لأكبر قدر ممكن منا لممارسة الصلاح والإصلاح في أوج الحملة العالمية للفساد والإفساد، ويقيننا ثابت ومطلق أن ما معنا من حق سيضطر باطلهم إلى أن يزهق؛ لأن الله عز وجل اشترط علينا أن نجيء بالحق، وبشرنا أن الباطل - إن فعلنا وفق منهج إحساني - سيزهق؛ لأنه لا قدرة له على مواجهة الحق القادم بحق والهادف إلى الحق، قال تعالى: ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ (الإسراء:81). سمة الباطل أنه زهوق، جبان، لا يقدر أن يصمد في وجه الحق؛ لأن الحق قوي. وقد صور لنا القرآن الكريم قوته في مشهد مفعم بالحركة وكأننا أمام معركة حقيقية فيها دمغ ودماء...قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِٱلْحَقِّ عَلَى ٱلْبَٰطِلِ فَيَدْمَغُهُۥ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ۚ وَلَكُمُ ٱلْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾ (الأنبياء:18)، ولتلك القوة التي يمتلكها الحق - وهي كما قلنا لا يقدر

الباطل أن يصمد أمامها - يحرص الباطل بما أوتي من قوة وحيلة ووسائل أن لا يجيء الحق، فهو يعمل ليل نهار على عرقلة مجيء الحق، أو على أن يجيء بباطل، أو أن يجيء بمنهج ممتلئ ضعفاً، وهو موقن أن الحق قادم لا محالة[1]، لذلك يحرص أن يؤخر ذلك المجيء لأطول مدة ممكنة.

والإنسان الحي بالوحي له قدرتان، وفق ما سبق: قدرة على حماية نفسه من بريق شعارات (الآخر) وتلبيس إبليس، وقدرة على الأخذ بزمام المبادرة والمجيء بالحق في أنقى صورة وأروعها، وهذا هو النموذج الذي مثل له الرسول ﷺ بالأرض الطيبة التي أصابها الغيث «... **قَبِلَتِ الْمَاءَ فَأَنْبَتَتِ الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيرَ...**»[2].

2- الإنسان القوي:

وأما جعل الإنسان قوياً؛ فلأن القوة شرط في ممارسة الصلاح والإصلاح، لكن أي قوة؟ هل كل قوة مطلوبة؟ وإذا كان الجواب بالنفي ما الحد الفاصل بين القوة المطلوبة والقوة المرفوضة؟

يشير الرسول ﷺ إلى أن القوة حلية الإنسان المؤمن، ومزية له عند الله تعالى على غيره، ففيما رواه مسلم عن أبي هريرة:«قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، وَفِي كُلٍّ خَيْرٌ، احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلا تَعْجَزْ...**» [3]، وقد أُمرنا في القرآن الكريم أن نعد لأعدائنا ما استطعنا من قوة: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال:60)، وحسبنا من

(1) قال تعالى في سورة المجادلة، الآية 21:﴿ **كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ .
(2) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب فضل من علِم وعلَّم، 41/1، حديث رقم 79.
(3) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز...، حديث رقم 2664.

ذلك أن القوة مطلوبة، ونحن في هذا البحث نعنى بالقوة غير الحربية؛ لأننا نتحدث عن إصلاح داخل مجتمعاتنا، وحتى خارجها لكن في أجواء سلمية بعيدة عن لغة السلاح، ويقيننا أن قوتنا في هذه الحال لا تكون سوى قوة ذاتية نابعة من شدة التمسك بالمبادئ ودرجة الاقتناع بالعقيدة، التي نؤمن بها وندافع عنها، وقد يكون ذلك قريباً من قوله تعالى لموسى، عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا ۚ سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ (الأعراف:145)، ومن قوله ليحيى، عليه السلام: ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ﴾ (مريم:12)، وقوة الأخذ هذه قوة قلبية، كما قال الراغب[1]، أي هي قوة الإيمان والعقيدة الراسخة. وحسبنا في موضوع الإصلاح بهذه القوة قوة؛ لأنها تحرر الإنسان من الارتهان للقوة المادية وإعطائها الأولوية على حساب القوة المعنوية، مهمتنا، وفق ما سبق، أن ننشئ إنساناً مصلحاً قوي العقيدة والإيمان بدوره في هذه الحياة، يتسم في المقام الأول بما نسميه: «**قوة الفكر لا فكر القوة**»، ونحن نقصد بقوة الفكر القوة المعنوية القائمة على الاقتناع بالشيء والاستعداد للدفاع عنه، وبفكر القوة الاحتكام بالدرجة الأولى إلى العضلات وما يتعلق بها من سلاح وغير ذلك في مجال الأفكار والمعتقدات. فالمطلوب من وجهة نظرنا إيجاد الإنسان الفاعل لا الإنسان المنفعل، الأول رصين ينظر إلى أبعاد الأمور ويقدرها بقدرها، والثاني يتكلم بلغة العضلات ويريد اختصار المسافات ويرى أن أقرب الطرق إلى تحقيق ما يريد فرض ذلك بالقوة؛ لكنه لا يدرك أن ما يؤخذ بالقوة ينتزع بالقوة، وأننا قد نفرض على الناس أفكاراً، ولكننا لا نقدر أن نقنعهم بها، وكيف نقنعهم ونحن نفرضها

(1) مفردات ألفاظ القرآن، مادة«قوي»، ص 694.

عليهم، وإنما يلجأ إلى لغة القوة لفرض الرأي أو العقيدة... من لا يقدر على الإقناع، ومن لا يثق في القوة الذاتية لما يقدمه للناس.

وعالم الأفكار يحكمه منطق الإقناع لا منطق الغلبة وإراقة الدماء، ومن ثم فالمطلوب ليس فكر القوة؛ بل قوة الفكر؛ المطلوب من المصلح أن يعلم أن مجال عمله بالمقام الأول هو مجال أفكار واقتناعات وتصورات، وأنه ينبغي أن يكون قوياً قوة مناسبة لهذا المجال، والقوة المطلوبة هنا قوة المبدأ والعقيدة، أو ما عبرنا عنه آنفا قوة الفكر. ومن ثم سيركز جهده على سبل منح أفكاره قوة إقناعية تدفع (الآخر) بكل تلقائية إلى الاقتناع بما يدعوه إليه والإيمان بما يؤمن المصلح به.

3- الإنسان الأمين:

وأما إقامة الإنسان **الأمين**؛ فلأن تحمل الأمانة وأداءها بحقها شرط الاستخلاف، ولا يمكن أن يؤدي الأمانة إلا من كان أميناً: أميناً في الحفاظ عليها، وأميناً في أدائها، ثم إن ذلك ذو علاقة بالإيمان، والأمن أيضاً، فمادة «أمن»، كما قال ابن فارس، لها: «أصلان متقاربان: أحدهما الأمانة التي هي ضد الخيانة، ومعناها سكون القلب؛ والآخر تصديق. والمعنيان كما قلنا متدانيان. قال الخليل: الأَمَنَة من الأمن. والأمان إعطاء الأمنة. والأمانة ضد الخيانة. يقال: أَمِنْت الرجل أمناً وأمنة وأماناً، وآمنني يؤْمنني إيماناً... والأمين المؤتَمَن»(1)، وفي لسان العرب: «الأمانة والأمنة: نقيض الخيانة لأنه لا يؤمن أذاه...والأمانة تقع على الطاعة والعبادة والوديعة والثقة والأمان»(2)، وما سبق يعني أن إقامة الإنسان الأمين تهدف – من ضمن ما تهدف

(1) مقاييس اللغة، مادة «أمن»، 1/135-136.

(2) لسان العرب، مادة «أمن»، 13/22.

إليه – إلى إيجاد الشخص الذي **يُؤمِن بدوره** الإصلاحي أيما إيمان، **ولا يخون الأمانة** بما فيها أمانة المبدأ والعقيدة والثغر الذي يرابط به والدعوة التي يمارسها والمؤسسة التي ينتمي إليها والمشروع الذي يشارك فيه...، **ويأمنه الناس**. فالأمر يتعلق إذاً بإيمان وأمانة وأمان.

وخلق الأمانة يجعل هذا الإنسان يراعي الله تعالى في الدور الذي يمارسه؛ لأن أناساً لم تسكن الأمانة قلوبهم تقووا في الإصلاح وبه ثم التهموا المؤسسات بعد أن لبّس الشيطان عليهم بتخريجات وتخريجات؛ ولأن أناساً مارسوا- باسم الإصلاح وهم يحملون راية الإصلاح- أسوأ أنواع الفساد والإفساد، هؤلاء كان ينقصهم خلق الأمانة، كان ينقصهم خلق الرعاية لحقوق الله، كان باختصار ينقصهم إقامة الشخصية الأمينة. ولتلك الأسباب وغيرها وجدنا أنبياء الله في القرآن الكريم يثيرون انتباه قومهم إلى ما يتصفون به من أمانة تمنعهم من الكذب على الله، والتدليس على الناس، ففي سورة واحدة نجد العبارة نفسها ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ يذكرها نوح وهود وصالح ولوط وشعيب[1]... لماذا هذا التشابه في منهج الدعوة لو لم يكن للأمانة شأن، وأي شأن؟!

تلك ثلاثة كاملة لمن أراد أن يتم استكمال الشخصية الصالحة في نفسها ومجتمعها، حالاً واستقبالاً: **ماء الحياة** الكامن في الوحي؛ **والقوة** الذاتية النابعة من الإيمان والعقيدة الراسخة؛ **والأمانة** في الحفاظ على ذلك الإيمان وتلك العقيدة وما يتضمنه ذلك من قيم الإصلاح، وفي أدائها بحقها.

وعندما تمتزج تلك العناصر الثلاثة في الشخص الواحد تحدث تفاعلاً كيميائياً عجيباً

---

(1) انظر ذلك تباعاً في سورة الشعراء، الآيات 107، 125، 143، 162، 178.

يعلن عن نفسه في صــورة «**الإنســان الأمة**»، ولنتأمل في ضوء ما سبق هذه الآيات الكريمة: ﴿ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ ٱجْتَبَٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل:120-123).

يخبرنا ربنا أن سيدنا إبراهيم، عليه السلام، كان أمة، وأن ذلك كان لأنه: كَانَ قَانِتًا لِلَّهِ؛ كَانَ حَنِيفًا؛ لَمْ يَكن مِنَ الْمُشْرِكِينَ؛ كَانَ شَاكِرًا لأَنْعُم الله؛ اجْتَبَاهُ الله؛ هَدَاهُ الله إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ؛ آتَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً؛ إِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ.

العناصـر الأربعـة الأولى عمـل وكـد (قنـوت، حنيفيـة، توحيـد، شـكر)، والعناصـر الأربعة الأخيرة توفيق ومد (اجتباء، هداية، حسنة في الدنيا، مع الصالحين في الآخرة)، وكأننا أمام خطاب ضمني يقول لنا: كل خطوة منكم تليها خطوات مني، لكن أُخطوا أنتم أولاً. وهذا مصداق ما في الحديث القدسي « عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِي الله عَنْه، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي، فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلإٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلإٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً**»[1].

وبعد ذلك العرض لسمات ذلك الإنسان الأمة يرد التكليف: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (النحل:123)، فملة إبراهيم سالكة موصلة، والطريق إلى **الإنسان الأمة** لن تكون إلا بذلك الاتباع.

---

(1) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى﴿ **وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ**﴾ ...، 1854/4، حديث رقم 7405.

خاتمة

والآن، وفي ضوء ما تقدم، لنتأمل قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:105)، وقول الرسول ﷺ لما سألته زينب بنت جحش رضي: «يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَهْلِكُ وَفِينَا الصَّالِحُونَ؟ قَالَ: **نَعَمْ، إِذَا كَثُرَ الْخَبَثُ**»[1].

إن أول ما نلاحظه أن الحديث في النصين معاً عن الصالحين بصيغة جمع المذكر السالم، غير أن الجماعة الأولى فاعلة بينما الثانية معطلة، وسمة فعالية الصالحين في النص الأول أنهم عباد الله، وأنهم يرثون الأرض، ومن سنن الله في الكون أن وراثة الأرض مرهونة بتحقق الصلاح، فهل يرثها الصالحون في أنفسهم؟

هذا ما ينفيه ضمناً الحديث النبوي، إذ مقتضاه وجود صالحين لكن وجودهم كعدمه بدليل أن الخبث كثر وهم موجودون، مما يعني أنهم لا يؤدون دورهم في مقاومة الخبث، ومنعه من التكاثر، فكثرة الخبث والمفسدين والفاسدين تدفعنا إلى أن نسائل الصالحين أولاً: ما الذي قدموه لمجتمعهم قبل أن يغرقه الفساد والمفسدون؟

وقد عبر القرآن الكريم في موضع آخر عن ذلك صراحة فقال: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:16)،

(1) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة في الإسلام، حديث رقم 3598، 880/2.

و«أمرنا» في الآية بمعنى «كثرنا»، كما قال ابن عباس[1]، وقوله تعالى: ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ دال على أن في القرية غير مترفين، وطبعاً من هؤلاء قوم صالحون، ولكنهم غير فاعلين، لا يقومون بدورهم، أو يقومون به لكن لا فقه لديهم بسنن مغالبة الفساد ومدافعته، بمعنى أنهم – وفق الضابط الإحساني – لا يحسنون الإصلاح، وهذا ما جعل صوتهم ضعيفاً وصوت خصومهم قوياً، مما دفع الفساد إلى الإعلان عن نفسه، والعمل علانية، ثم مجاهرة الصلاح بالعداوة.

ما سبق هو الذي دفعنا إلى القول: إن هلاك أمة فيها صالحون إنما سببه أن هؤلاء قصروا في ممارسة الصلاح والإصلاح، وهذا يدفعنا إلى أن نفهم نص وراثة الأرض سالف الذكر على أنه نص خاص بالصالحين؛ لكن الصالحين في أنفسهم وفي مجتمعهم. وصلاحهم الثاني ليس سوى ما عبرنا عنه مراراً بالإصلاح.

وبذلك فالصالحون الذين يعدهم الله بوراثة الأرض ويدعوهم إلى المسارعة ببذل الجهد لتحقيق وعد الله فيهم ليسوا سوى أولئك الذين صلحت أحوالهم وسعوا إلى إصلاح أحوال البلاد والعباد، ليسوا سوى أولئك الذين أحسنوا فهم الصلاح وممارسته، وكان صلاحهم وإصلاحهم على بصيرة. هؤلاء هم «الذين يجمعون بين الإيمان والعمل الصالح. فلا يفترق في كيانهم هذان العنصران ولا في حياتهم.

وحيثما اجتمع إيمان القلب ونشاط العمل في أمة فهي الوارثة للأرض، في أية فترة من فترات التاريخ. ولكن حين يفترق هذان العنصران فالميزان يتأرجح. وقد تقع الغلبة للآخذين بالوسائل المادية حين يُهمِل الأخذ بها من يتظاهرون بالإيمان، وحين

---

(1) تفسير الطبري (بيروت: دار الفكر، 1405هـ) 56/15؛ وروى البخاري عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال:«كنا نقول للحي إذا كثروا في الجاهلية أمر بنو فلان». صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، سورة الإسراء، باب قوله: ﴿ **وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا** ﴾... الآية، 1171/3، أثر رقم 4711.

تفرغ قلوب المؤمنين من الإيمان الصحيح الدافع إلى العمل الصالح، وإلى عمارة الأرض، والقيام بتكاليف الخلافة التي وكلها الله إلى هذا الإنسان.

وما على أصحاب الإيمان إلا أن يحققوا مدلول إيمانهم، وهو العمل الصالح، والنهوض بتبعات الخلافة ليتحقق وعد الله، وتجري سنته: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ [(1)].

ويوم نعي أن الإصلاح شرط لنهضتنا،

وأنه لا إصلاح دون صلاح،

ولا صلاح دون مرجعية ومنهج إسلاميين،

ولا فعالية لذلك كله بغير إقامة الإنسان الأمة،

يومئذ يفرح الصالحون المصلحون بتحقق موعود الله :

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِىَ ٱلصَّـٰلِحُونَ﴾ (الأنبياء:105).

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط14 (القاهرة؛ بيروت: دار الشروق، 1412هـ/1992م) 2400/4.